سُورَةُ الصَّافَّاتِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سورة الصافات[1]

﴿وَالصَّافَّاتِ صَفًّا (١) فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا (٢) فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا (٣) إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَاحِدٌ (٤)﴾

هذا الأسلوب يُسمَّى أسلوب القسم ، الله تعالى هو المقْسِم يُقسِم على ﴿إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَاحِدٌ (٤)﴾[الصافات] وقد أخبر الرسول ﷺ بمراده تعالى فى القسم ، فالله يريد منَّا إنْ أقسمنا ألاَّ نُقسِم إلا به سبحانه ، لكن بالاستقراء رأينا أنَّ الحق سبحانه يقسم بخَلْق من خَلْقه ، فيُقسِم بالملائكة ، ويُقسِم بالحيوان ، ويُقسِم بالجبال ، ويُقسِم بالفجر .. الخ

قالوا : لأن الله تعالى يقسم بما يشاء على مَنْ يشاء ، أمَّا أنت فلا تقسم إلا بالله ، لأن القَسَم تعظيمٌ للمقْسَم به ، وينبغى ألاَّ يكون

(١) سورة الصافات هى السورة (٣٧) فى ترتيب المصحف الشريف ، عدد آياتها ١٨٢آية ، وهى سورة مكية فى قول الجميع ، كما قاله القرطبى فى تفسيره (٥٦٩٩/٨) ، وقد ذكر السيوطى فى الإتقان (٢٧/١) نقلاً عن ابن الضريس فى « فضائل القرآن » أن سورة الصافات نزلت بعد سورة الأنعام وقبل سورة لقمان ، وعلى هذا فتكون سورة الصافات رقم (٥٥) فى ترتيب نزول القرآن الكريم .

مُعظَّماً عند المؤمن إلا الله ، ولا يصح أنْ تقول (وحياة فلان ، ورأس علان) فإنْ كنتَ حالفاً فلتحلف بالله ، كما جاء في الحديث الشريف : « مَنْ كان حالفاً فليحلف بالله »(١)

فإذا ظهر ما يكون ظاهره قَسَماً بغير الله ، فاعلم أنه لا يُعَدُّ قَسَماً ، وخصوصاً إنْ جاء من عالم أو يقيني كأنْ يقول : (وحياة أبوك يا فلان تعمل كذا وكذا) ، هذا ليس قَسَماً ، إنما هو مساءلة. القسَم : أنْ تُقسم على شيء ، حدث أو لم يحدث ، إنما طَلَبُ الشيء يسمى مساءلة ، كذلك يقول الحق تعالى : ﴿ ..الَّذي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ (١) ﴾ [النساء] أي : وبالأرحام في قراءة من جر الأرحام .

والحق سبحانه يقسم بما يشاء على مَنْ يشاء ، وأنت لا تقسم إلا بالله ؛ لأن الشيء قد يكون تافهاً في نظرك ، ولكنه عند خالقه عظيم ، وله مهمة تغفل أنت عنها ، وحين يحلف الله به إنما يُلفت نظرك إلى أهميته ودوره ، فمثلاً لما فَتَر الوحي عن سيدنا رسول الله ﷺ لم يلتفت الكفار إلى الحكمة من ذلك .

والحكمة أن الوحي كان يَثْقُل على رسول الله ، حتى يبلغ منه الجهد ، وحتى أن جبينه ليتفصَّد عرقاً(٢) ، وإن نزل الوحي عليه وهو على دابة فإنها تئنُّ وتنخُّ به(٣) ؛ ذلك لأن الوحي ثقيل .

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (١٦٤٦) كتاب الأيمان - رواية (٣) عن عبد الله بن عمر عن رسول الله ﷺ أنه أدرك عمر بن الخطاب في ركب وعمر يحلف بأبيه ، فناداهم رسول الله : « ألا إن الله عزوجل ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم ، فمن كان حالفاً فليحلف بالله أو ليصمت » .

(٢) قالت عائشة رضي الله عنها : لقد رأيته ﷺ ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد ، فيفصم عنه وإن جبينه ليتفصد عرقاً . أي : أن عرقه كثير في يوم شديد البرد . [أخرجه البخاري في صحيحه (٢) كتاب بدء الوحي] .

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه (٤٥٩٢) موصولاً من حديث زيد بن ثابت رضي الله عنه أن رسول الله أُنْزل عليه ﴿ لايستوي القاعدون من المؤمنين والمجاهدون في سبيل الله ﴾ وفخذه على فخذي ، فثقلت عليَّ حتى خفْت أن ترُضَّ فخذي .

كما قال سبحانه : ﴿ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً ۝٥ ﴾ [المزمل]

فجاءت فترة انقطاع الوحى رحمةً برسول الله ، وتسريةً عنه ، وتخفيفاً من معاناته ، ثم ليشتاق هو إلى الوحى يعاوده من جديد ، لم يلتفت الكفار إلى ذلك ، وقالوا : إن رب محمد قَلاَه[1] يعنى : تركه وهجره وجفاه ، وواضح ما فى هذا القول من تناقض ، فعند الإيمان يُكذِّبون بمحمد ورب محمد ، وعند الجفوة يقولون : إن رب محمد قلاه ، ويعترفون أن له رباً !!

لذلك أراد الحق سبحانه أنْ يوضح لهم هذه المسألة ، وأنْ يُظهر غباءهم بهذا المقسَم الذى جاء مناسباً للموقف ، يحمل إشارة لطيفة إلى العلاقة بين المُقْسَم به ، والمقْسَم عليه ، فقال سبحانه : ﴿ وَالضُّحَىٰ ۝١ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣ وَلَلآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الأُولَىٰ ۝٤ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ۝٥ ﴾ [الضحى]

والمعنى : أنك يا محمد أُجهدتَ بالوحى ، وكان لا بُدَّ أنْ تستريح لتشتاق نفسك إليه وتطلبه ، وحين ترتاح سيُخفِّف ذلك من معاناتك فى استقباله ، وسوف تذوق حلاوته من جديد ، ويكون عليك أيْسَرَ وأسهل ، وأتى الحق سبحانه بهذا القسم بشىء موجود مُشَاهد ، لا يختلف عليه اثنان .

فهم يعرفون ﴿ الضُّحَىٰ ۝١ ﴾ [الضحى] حين تشرق الشمس ، وتنير الكون ، ويعرفون ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ ﴾[الضحى] يعنى : سكَن وهدأ ، والإشارة هنا فى أن الضحى إذا جاء ثم تلاه الليلُ بسكونه ، هل يعنى هذا أن الضحى لن يعود مرة أخرى ؟

---

(١) أورد ابن كثير فى تفسيره (٤/٥٢٢) أن جندب بن عبد الله قال : « أبطأ جبريل على رسول الله ﷺ فقال المشركون : ودع محمداً ربه . فأنزل الله تعالى :﴿ وَالضُّحَىٰ ۝١ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣ ﴾ [الضحى] .

لا ، بل سيأتى الضحى من جديد بعد أن تكونَ قد ارتحْتَ من تعب النهار والسعى فيه ، واستعدْتَ نشاطك ليوم جديد ، ومعنى ﴿ وَلَلآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الأُولَىٰ (٤) ﴾ [الضحى] أى : أن عودة الوحى ثانية ستكون أحلى من الأولى ، وأخفّ وأيسر .

إذن : الحق سبحانه يقسم بما يشاء من مخلوقاته ، ليُعلمنا أن هذه الأشياء عظيمة عند خالقها ، لكن غفلنا نحن عن وجه العظمة فيها ، ويُقسِم بما يشاء من مخلوقاته ليُقرِّب لنا بواسطة المعلوم شيئاً مجهولاً .

هنا يقول تعالى : ﴿ وَالصَّافَّاتِ صَفًّا (١) ﴾[الصافات] الواو تسمى واو القسم مثل : التاء والباء . نقول : والله وبالله وتالله ، وقد يُستغنى عن حروف القسم ، ويستدل عليه باللام فى جواب القسم ، كما فى : ﴿ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (٣) ﴾ [يس] وأنت لا تقسم على الشىء بداية ، وإنما تقسم إنْ أنكر المخاطب لتؤكد له الخبر ، ويأتى القسم والتأكيد على قَدْر الإنكار .

فإذا قال الحق سبحانه مثلاً :﴿ لا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ (١) ﴾ [القيامة] أو : ﴿ لا أُقْسِمُ بِهَٰذَا الْبَلَدِ (١) وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَٰذَا الْبَلَدِ (٢) وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ (٣) لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي كَبَدٍ (٤) ﴾ [البلد] وفى : ﴿ فَلا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ (٧٥) وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ (٧٦) ﴾ [الواقعة]

وفى هذه الآيات . قَسَم بدليل أن له جواباً ، لكن لماذا نَفَاهُ القرآن ، فقال (لاَ أُقْسِمُ) قالوا : لأن نَفْى القسم هنا أشدُّ من القسم المثبت ؛ لأن القَسَم إنما جاء لتأكيد المقسَم عليه ، ومعنى (لا أقسم) أن هذا أمر واضح لا يحتاج إلى قَسَم ، القَسَم يأتى لتأكيد أمر منكر أو مشكوك فيه ، أمّا هذا الأمر فواضح بيِّن ، ومع ذلك سأقسم لك .

•

ومعنى ﴿وَالصَّافَّاتِ صَفًّا (١) فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا (٢) فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا (٣)﴾ [الصافات] قالوا : الصافات صَفًّا هى الملائكة تُصَفُّ ، والصَّفُّ انسجام مجموعة بحيث لا يشذّ فيها فرد عن فرد ، فالصَّفُّ لا يعنى مجرد الجمع ، إنما الجمع فى انسجام وانضباط ، لذلك النبى ﷺ كان فى استعراض الجنود فى المعركة يُسوِّى الصفوف ، فلما رأى رجلاً شَذَّ عن الصف وخرج عنه فشكَّه فى بطنه ليستقيم فى مكانه من الصَّف ، وكان الرجل محباً لرسول الله ، فقال : أوجعتنى يا رسول الله ، فقال رسول الله ﷺ : « هذه بطنى اقتصّ منها » فأقبل الرجل يُقبِّل رسول الله ويقول : والله يا رسول الله لقد أمَّلْتُ أن أستشهد ، فأحببتُ أن يكون آخر عهدى بالحياة أنْ يمسَّ جسدى جسدك الشريف .

والصَّف دليل الانتظام والالتزام والاستعداد لتلقِّى الأوامر ، وهكذا تُصَفُّ الملائكة فى انتظار الأوامر ، ليقوم كل منهم بمهمته ودوره .

وإذا استعرضتَ مادة (ص ف ف) فى القرآن الكريم تجدها تدور حول هذا المعنى ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا (٦٤)﴾ [طه] يعنى : مجتمعين مُتحدين ، وقال : ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا (٢٢)﴾ [الفجر]

وقال : ﴿أَوَ لَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلاَّ الرَّحْمَـٰنُ (١٩)﴾ [الملك]

صحيح ، ترى الطائر فى السماء باسطاً أجنحته هكذا لا يحركها ، ومع ذلك لا يقع ، كذلك تراه يقبض أجنحته ، ويظل أيضاً ثابتاً فى مكانه ، فما الذى أمسكه لا يقع ؟ أمسكه الرحمن وكأن فى إمساك الطير الذى نراه ونشاهده دليلاً على صدْق الحق فى

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ أَن تَزُولا وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ (٤١) ﴾ [فاطر]

إذن : إمساك الطير نموذج لإمساك السماء ، إلا أن هذا إمساك مؤقت ، وذاك إمساك دائم .

ويقول عن الملائكة عموماً : ﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ (١٦٥) ﴾ [الصافات] يعنى : نقف فى انضباط منتظرين الأوامر ، والصف هنا يدل على الانسجام ، وأنه لا يتعالى أحد على أحد ، ويدل على الرهبة ممَّنْ أنت أمامه مصفوفاً .

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى فى نعيم الجنة : ﴿ وَنَمَارِقُ[(١)] مَصْفُوفَةٌ (١٥) ﴾ [الغاشية]

بعض العلماء يرى أن الصافات لها معنى أوسع ، ويراد بها مجال نشر الدعوة والإعلام بها ، والدفاع عنها ، وحماية الاختيار فى الإسلام ، وفى القتال ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ (٤) ﴾ [الصف] معنى ﴿ فِي سَبِيلِهِ (٤) ﴾ [الصف] أى : من أجل الإعلام بدينه والدفاع عنه أمام أعدائه ، فالإعلام بالدين مهمة العلماء ، والدفاع عنه مهمة الجنود فى ساحة القتال ، وينبغى أن يكون هؤلاء وهؤلاء صفاً واحداً كأنه البنيان المرصوص ؛ لذلك قال تعالى : ﴿ فَلَوْلا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ (١٢٢) ﴾ [التوبة]

---

(١) النمرقة : الوسادة الصغيرة يُستند إليها ، ويُتكأ عليها ، وجمعها نمارق . [القاموس القويم ٢/٢٨٨]

فالعالِم لا يقاتل ؛ لأن مهمته حَمْل الدعوة ، والمقاتل يموت فى سبيلها ويضحى بحياته من أجلها ، وهذه التضحية هى التى تثبت صدْق الدعوة ؛ لأن الدعوة لو لم تكُنْ صادقة فى نفس صاحبها لَمَا ضَحَّى من أجلها ، ثم تضحيته بروحه دليل على ثقته أنه ذاهب إلى خير مما هو فيه .

وتعرفون قصة الصحابى الذى سمع كلام رسول الله عن أجر الشهيد ، وكان فى فمه تمرة يمضغها ، فقال لرسول الله : أوليس بينى وبين الجنة إلا أنْ أقاتل هؤلاء فيقتلوننى ؟ قال : بلى . فألقى التمرة واستبطأ أن يمضغها وأسرع إلى ساحة القتال .(١)

إذن : القتال فى سبيل الله ، إما باللسان وإما بالسِّنان ، ولابد أنْ يُعلَم أن المقاتل الذى يحمل السيف لا يحمله ليُكرِه غير المؤمن على الإيمان ؛ لأنه لا إكراه فى الدين ، إنما يحمله ليحمى حريته واختياره هو لهذا الدين ، بدليل أن الإسلام فتح بلاداً كثيرة ، وظلَّتْ على دينها .

والصف الواحد ليس فقط للمقاتلين فى ساحة القتال ، إنما أيضاً لحاملى الدعوة ، فيجب على هؤلاء العلماء أن يكونوا فى دعواهم صفاً واحداً لا يشقه خلاف ، فما كان فى كلام الله مُحْكماً التزموا به ، وما كان متشابهاً لا يُكفِّر بعضهم بعضاً بسببه .

---

(١) عن جابر بن عبد الله قال قال رجل للنبى ﷺ يوم أحد : أرأيت إن قُتلت فأين أنا ؟ قال : فى الجنة فألقى تمرات فى يده ، ثم قاتل حتى قُتل أخرجه البخارى فى صحيحه (٤٠٤٦) وقال ابن حجر : لم أقف على اسم الرجل وزعم ابن بشكوال أنه عمير بن الحُمام واحتج بما أخرجه مسلم من حديث أنس وفيه ذكر عمير بن الحمام . ولكن وقع التصريح فى حديث أنس أن ذلك كان يوم بدر ، فالذى يظهر أنهما قصتان وقعتا لرجلين ، والله أعلم .

﴿ فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا (٢) ﴾[الصافات] قالوا : هذه هى مهمة الملائكة أنْ تزجر الشياطين الذين يسترقون السمع ، كما قال تعالى : ﴿ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ الآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا (٩) ﴾ [الجن]

وكانت الشياطين قبل رسالة محمد ﷺ تصعد فى السماء ، وتتسمّع الأخبار ، ويُمكِّنهم الله من بعض الأخبار والأوامر فيسمعونها ويُلْقونها إلى أوليائهم من البشر ، فيزيدون عليها أشياء باطلة ، ويخبرون الناس بها على سبيل أنهم يعلمون الغيب ، فلما كانت بعثة النبى ﷺ مُنعوا من استراق السمع ، وسلَّط الله عليهم الشُّهُب تنقضّ عليهم فتحرقهم .

فإنْ قلتَ : كيف ، ونحن نرى النجوم على كثرتها ، هى هى لا تنقص ، نقول : لأن النجوم منها نجوم فى السماء للزينة ، ومنها نجوم للرجم ، بدليل قوله تعالى : ﴿ إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ (٦) وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ (٧) لا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلإِ الأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ (٨) دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ (٩) ﴾ [الصافات]

أما ﴿ فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا (٣) ﴾[الصافات] قالوا : هى المُنزلات الوحى على الرسل ؛ لأنهم يتلُونه عليهم ، بعد أنْ نزلوا به من عند الله

آخرون فهموا ﴿ وَالصَّافَّاتِ (١) ﴾ [الصافات] على معنى آخر يتفرع عنه معَان أخرى للزاجرات زجراً والتاليات ذكراً ، قالوا : معنى ﴿ وَالصَّافَّاتِ (١) ﴾[الصافات] أى : المؤمنين يُصَفُّون للصلاة ، لأنها عماد الدين ورمز للاجتماع والوحدة ، ومن تمامها أن تكون فى صفوف مستوية .

لذلك قال النبى ﷺ : « سَوُّوا صفوفكم ، فإنَّ تسوية الصفوف

من إقامة الصلاة[1]» وقال : « إن الله لا ينظر إلى الصَّف الأعوج»[2] والصفوف فى الصلاة دليل على الانضباط ، وأنه لا يشذ أحد عن الآخر ، ودليل على الخضوع والوقوف فى أدب بين يدى الله . إذن : فكما تُصَفُّ الملائكة تُصَفُّون أنتم ، ولكلٍّ صلاته وعبادته .

فإذا ما سَوَّيْنَا الصفوف واستقمنا فيها لله تعالى ندخل فى الصلاة ونقول : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، وهذا زَجْر للشيطان ؛ لذلك قال : ﴿وَالصَّافَّاتِ صَفًّا ① فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا ②﴾[الصافات] ومعنى ﴿فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا ③﴾[الصافات] أى : ما نتلوه بعد ذلك من كلام الله : ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ② الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ③ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ④﴾ [الفاتحة]

هذا هو القَسَم ، فما المُقسَم عليه؟ المقْسَم عليه قوله سبحانه : ﴿إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَاحِدٌ ④﴾[الصافات] وهذه العبارة مع أنها جواب لقسم ، إلا أن الله تعالى أكّدها أولاً بـ (إن) ثم أكَّدهَا باللام فى (لَوَاحِدٌ) ، وذلك لأنها تمثل أساس الدين وجوهر العقيدة ، فالإله الحق واحد هو المهيمن على هذا كله ، وقلنا : إن واحد غير أحد : واحد يعنى ليس له ثَانٍ مثله ، أما أحد فيعنى أنه غير مركب من أجزاء فى تكوينه ، فهو سبحانه فى ذاته أحد .

﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ ٱلْمَشَٰرِقِ ⑤﴾

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (٧٢٣) ، وكذا مسلم فى صحيحه (٤٣٣) كتاب الصلاة - باب تسوية الصفوف (٢٨) كلاهما من حديث أنس بن مالك رضى الله عنه .

(٢) مما ورد فى هذا المعنى ما أخرجه أحمد فى مسنده (٢/٩٧) وأبو داود فى سننه (١/١٧٨) من حديث عبد الله بن عمر رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : « أقيموا الصفوف ، وحاذوا بين المناكب ، وسدوا الخلل ، ولينوا بأيدى إخوانكم ، ولا تذروا فُرُجات للشيطان »

وفى آية أخرى قال : ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَـٰوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَىٰ ۝٦﴾ [طه] وهذا الذى تحت الثرى هو الذى يحتاج منّا إلى بحث لنصل إليه ونكتشفه ونُخرجه كما قلنا من عالم الملكوت إلى عالم الملْك .

هنا قال ﴿وَرَبُّ الْمَشَارِقِ ۝٥﴾[الصافات] ، وفى موضع آخر قال : ﴿بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ ۝٤٠﴾ [المعارج] إذن : الحق سبحانه يُبْقى لألمحية الالتقاط الذهنى من الألفاظ موضعاً ، فما دام هناك مشارق إذن لابد أنْ يقابلها مغارب ؛ لأن الشمس لا تشرق على قوم إلا وتغرب عن آخرين ، إذن : عرفناها باللزوم .

وحين نستعرض هاتين الكلمتين فى كتاب الله نجد أنهما تأتيان مرة بصيغة المفرد ﴿رَّبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ ۝٩﴾ [المزمل] ، وتأتى بصيغة المثنى ﴿رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ ۝١٧﴾ [الرحمن] ، وتأتى بصيغة الجمع ﴿بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ ۝٤٠﴾ [المعارج]

ذلك لأنه إذا خاطب الإنسان الواحد فى المكان الواحد قال المشرق والمغرب ، لأن لكل مكان مشرقاً ومغرباً ، فإنْ تعدَّدتْ الأماكن تعددت المشارق والمغارب ، فنحن مثلاً فى القطر الواحد نلاحظ أن مغرب القاهرة غير مغرب الأسكندرية ، فإذا نظرنا إلى كل الأمكنة فى الكرة الأرضية علمنا أن المشارق والمغارب لا تتناهى ، ففى كل نصف ثانية مشرق ومغرب .

لذلك قلنا : من حكمة الخالق سبحانه فى دورة الأرض حول نفسها ، وحول الشمس أنها تُوزع مقومات الحياة فى الكون كله ، فلو ظلَّتْ الشمس مواجهةً لمكان واحد لاحترق ، ولو ظلَّتْ غائبة عن مكان لَتجمَّد . ونتيجة هذه الحركة يظل الحق سبحانه معبوداً فى كل

أوان بكل عبادة ، كما سبق أن أوضحنا أنه فى اللحظة الواحدة يُصلَّى الصبح عند قوم ، والظهر عند آخرين ، والعصر عند آخرين ، والمغرب والعشاء ، وهكذا على مَدار اليوم والليلة .

أما قوله تعالى ﴿ رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ ﴿١٧﴾ ﴾ [الرحمن] قالوا : المشرقان يعنى : المشرق والمغرب ، أو مشرق الصيف ومشرق الشتاء[1]

ثم يقول سبحانه :

﴿ إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ ﴿٦﴾ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ ﴿٧﴾ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ﴿٨﴾ دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ﴿٩﴾ ﴾

نعم ، حين ننظر إلى السماء ليلاً نجدها مُزْدانةً بالنجوم تتلألأ ، وفى هذه النجوم عجائب وأسرار عرفها العربى الأُمىُّ ، فعرف النجم وعرف اسمه ومكانه وحركته ، واهتدى به فى سيره فى الصحراء ، كما قال سبحانه : ﴿ وَعَلامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ [النحل]

وحين تتأمل هذه النجوم فى السماء ترى أن الله تعالى أراد أنْ يرحمنا من حرارة الشمس ، ويُبقى لنا آثار الضوء نهتدى به ليلاً ؛ لأن هذه النجوم إنما تستمد ضوءها من ضوء الشمس .

ثم للكواكب مهمة أخرى :﴿ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ ﴿٧﴾ ﴾[الصافات]

(١) عن ابن عباس قال : للشمس مطلع فى الشتاء ومغرب فى الشتاء ، ومطلع فى الصيف ومغرب فى الصيف ، غير مطلعها فى الشتاء وغير مغربها فى الشتاء . أورده السيوطى فى الدر المنثور (٧/٦٩٥) وعزاه لسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم .

يعنى : تحفظنا هذه الكواكب من الشياطين ؛ لأنها تنقضّ على الشياطين فتحرقها ، وهذا النوع يُسمُّونه النيازك ، أما زينة الكواكب فباقية لأنها لا دَخْل لها بهذه المسألة ، أما النجوم المخصصة للشيطان المارد ، فلا بُدَّ أنْ تتناقص .

ومعنى (المارد) أى : المتمرد على منهج ربه ، لأنه وارث لإبليس ، يقف من ذريته نفس الموقف الذى وقفه إبليس من آدم ، فإنْ قلْتَ : الله تعالى يريد أن يسود منهجه الكونَ ، ليسود السلامُ والأَمْن والطمأنينة ، فلماذا إذن يخلق الشيطان المارد ؟ نقول : ليُؤصِّل الإيمان فى النفس المؤمنة مع وجود المخالف ، وإلا فما الميزة إذا كان الجميع مؤمنين طائعين ، إذن : لابُدَّ أنْ نُصفى أهل الإيمان ، وأنْ نُمحِّصهم لنعلم أهل الثبات ، لأنهم سيحملون دعوة يظل نداؤها إلى أنْ تقومَ الساعة ، فهذه لا يحملها إلا أولو العزم .

وقوله : ﴿ لا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلإِ الأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ﴿٨﴾ ﴾ [الصافات] جاءت هذه الآيات بعد أنْ أقسم الله بالزاجرات زَجْراً ، وقلنا: من معانيها أن الملائكة تزجر الشياطين عن استراق السمع فى الملأ الأعلى ، حيث كانوا يخطفون بعض الجزئيات ويُلْقونها إلى أوليائهم من الكهنة فيضيف هؤلاء إليها كثيراً من الكذب ليُضلِّلوا به الخَلْق .

وقد كَثُر هذا الاستراق قبل بعثة النبى ﷺ ، فلما بُعث ﷺ منعهم الله من استراق السمع ، وسلَّط عليهم الشهب تزجرهم وتنقضّ عليهم ، كما حكى القرآن : ﴿ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ الآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا ﴿٩﴾ ﴾ [الجن] ذلك تكريماً لرسالة محمد أن يدلِّس عليها تدخُّل الشياطين بشىء يفسد على الناس عقائدهم ، فقال : ﴿ فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا ﴿٢﴾ ﴾ [الصافات]

ومن عجائب الزَّجْر أنه يأتى على معنيين . فمعنى : زَجَرْتُ إنساناً يعنى : نهيتُه عن عمل شىء ، أما زجرتُ الدابة يعنى : أحثُّها على السير ، ومن ذلك قول الشاعر :

فَيَا وَيْحَنَا إلْفَيْن بُوعدَ بَيْنَنَا فَهَذا لهُ عُشٌّ وَذَلِكَ فى عُشّ
فَلَمَّا ألحَّتْ لِلْوصَالِ صَبَابَتى[1] زَجَرْتُ جَوَادى أنْ يطِيرَ ولاَ يَمْشِى

وفى المعنى الآخر ، قال الشاعر :

.... لَمْ يُبْقِ فينَا للْمودَّة مَطْرَحاً
إنِّى زَجَرْتُكَ عَنْ خَنَاً[2] فَزَجَرْتَنى أنْ أنْصَحَا

فالزَّجْر يأتى بمعنيين متضادين .

ومعنى ﴿لا يَسَّمَّعُونَ (٨)﴾[الصافات] فَرْق بين سَمِع وتسمَّع : سَمِع يعنى دون قَصْد منه ، إنما تسمَّع يعنى حاول وتكلَّف أنْ يسمع بصرف النظر أنه سمع شيئاً أو لم يسمع .

والمعنى : أن هؤلاء الشياطين مُنعُوا بعد بعثته ﷺ من تسمُّع الأخبار فى الملأ الأعلى ، وهم يحاولون ، لكن تزجرهم الملائكة وتنقضُّ عليهم الشُّهُب .

﴿وَيُقْذَفُونَ من كُلِّ جَانبٍ (٨)﴾[الصافات] والقذف : الرَّجْم بحيث تكون الضربة نافذة ﴿دُحُوراً (٩)﴾[الصافات] يعنى : مذمومين مطرودين ، والمدحور هو المطرود بإهانة ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ (٩)﴾[الصافات] يعنى: دائم لا يتغير ، ومنه قوله تعالى ﴿وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا .. (٥٢)﴾ [النحل] يعنى : دائماً ، فالدين هو هو واحد مع كل الرسل ، ووَصْف العذاب

(١) الصبابة : الشوق والعشق . قال ابن الأعرابى : صبَّ الرجل إذا عشق [لسان العرب – مادة صبب] .

(٢) الخنا : قبيح الكلام . والخنا : الفُحْش فى القول . [اللسان – مادة : خنا] .

هنا بأنه دائم ؛ لأنه حيلَ بينه وبين إنفاذ مهمته فى استراق السمع والتقاط الأخبار من الملأ الأعلى .

﴿ إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴿١٠﴾ ﴾

المعنى : أن بعض هؤلاء المردة سيستطيعون خطّف بعض الأخبار ، لكن لن يتمكنوا من الفرار بها ، وتوصيلها إلى أوليائهم . والخطف نوع من حيازة الملكية بدون وجه حق ، فلكُلٍّ منَّا حيازة وملكية ، ولا يُخرجه عن ملكيته إلا مَنْ يأخذها منه اعتداءً وظلماً ، ولهذا الاعتداء والظلم وسائل متعددة منها : الخطف وهو أنْ يُؤخَذ منك الشيء خَطْفاً يعنى بسرعة ، لكن على مَرْأىً منك ولا تستطيع منعه ؛ لأن الشيء بعيد عن متناول يدك ، كالولد الصغير يخطف شيئاً من البائع ويجرى به .

فإنْ كان صاحب الشيء قريباً واستطاع الإمساك به فنازعه المعتدى وتغلَّب عليه وأخذه فهو غَصْب ، فإنْ أخذ الشيء دون علم صاحبه فهو سرقة ، أما إنْ كان مؤتمناً على المال وأخذ منه فهو اختلاس .. هذه كلها وسائل لحيازة أموال الغير دون وجه حق .

كذلك يخطف الشيطان بعض الأخبار ويحاول الفرار بها ، لكن هيهات له ذلك ﴿ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴿١٠﴾ ﴾[الصافات] يعنى : كوكب ينقضُّ عليه ، ومعنى ﴿ ثَاقِبٌ ﴿١٠﴾ ﴾[الصافات] يعنى : نافذ يخترق الأجواء ، حتى يصل إلى هدفه فى أسرع وقت[1] .

فإنْ قُلْتَ : فلماذا لا يُمنع بدايةً من استراق السمع ؟ قالوا : فَرْقٌ بين أنْ يُمنَع من الشيء أصلاً ، وبين أنْ يناله ثم لا ينفذ به ولا

(١) عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : إن الجنى يجيء فيسترق ، فإذا سرق السمع ، فَرُمى بالشهاب قال للذى يليه : كان كذا وكذا . أورده السيوطى فى الدر المنثور (٧/ ٨٠) وعزاه لابن جرير وابن المنذر .

يستفيد منه ، إن الله يُمكِّنه من بعض الأخبار بالفعل فيسمعها ، لكن تُعاجله الزاجرات والشُّهب من كل ناحية ، فتكون حسرته أعظمَ ، حسرة أنه تعب وتحمَّل المشاقَّ فى استراق السمع والخطف ، وحسرة أنه لم ينتفع بما سمع .

﴿ فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَا إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ ﴿١١﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ فَاسْتَفْتِهِمْ ﴿١١﴾ ﴾[الصافات] أمر من الله تعالى لرسوله ﷺ ، يعنى : سَلْهم ، واستفتى طلب الفتوى ؛ لأن الألف والسين والتاء تدل على الطلب ، والفتوى من الفُتوَّة ، فحين يكون الإنسان بصدد شيء ، يريد أن ينفذه ، ولا يعرف فيه طريق الحق والصواب يذهب إلى مَنْ هو أعلم منه يستفتيه . يعنى : يطلب منه الفتوى أو الفتوَّة ، والقوة الدافعة له على العمل ، فكأنه كان ضعيفاً وأراد أن يَقْوَى برأى غيره .

فكأن الحق - سبحانه وتعالى - استأمنهم أنْ يُفتوا ، وأنْ يجيبوا هم ؛ لأنه سبحانه واثق من أن الخصوم لن يجدوا إلا قَوْلة الحق ينطقون بها ؛ لذلك لم يأتِ سبحانه بالمراد إخباراً ، إنما أتى به إقراراً منهم وشهادة ؛ لأن الخبر يحتمل الصدق أو الكذب ، أمَّا الإقرار فلا يستطيع أحد إنكاره ؛ لذلك قالوا : الإقرار سيد الأدلة .

ومضمون السؤال ﴿ فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَا ﴿١١﴾ ﴾[الصافات]؟ يعنى : أهم وأعظم وأشدّ خَلْقاً من السماء والأرض ، ثم لم يَأْت بالجواب لوضوحه ، ولن يكون إلا أنّ خَلْق السماء والأرض أشدُّ

من خَلْقهم وأعظم ؛ لذلك قال سبحانه في موضع آخر : ﴿لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾﴾[غافر]

فإنْ أردتَ أنْ تُدلِّل على هذه المسألة فتأمل خَلْقك وخَلْق السموات والأرض ، فالسماء والأرض مع أنهما يخدمانك ، إلا أنهما أطول عمراً منك وأبقى ، فهما منذ خلقهما الله باقيان لم يزولا ، أما الإنسان فيموت وهو طفل ، ويموت وهو شاب ، ويموت وهو شيخ ، يموت ويترك التركة باقيةً تتوارثها الأجيال .

إذن : هما أشدّ وأقوى ؛ لأنهما مخلوقان خلقة دائمة ، وأقوى من ناحية أنهما محكومان باختيارهما حين قالتا : ﴿أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١١﴾﴾ [فصلت]

فاختارا أن تكونا مُسخَّرتين قال تعالى : ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾﴾ [الأحزاب]

وقلنا : إن هناك فَرْقاً بين قدرة النفس على تحمُّل الأمانة وقدرتها على الأداء ، فقد تتحمل الأمانة وتنوى أداءها ، لكن لا تضمن نفسك عند الأداء ، فربما تغيَّرتْ الظروف ، أو طرأ عليك ما يحول بينك وبين أدائها ؛ لذلك امتنعت السموات والأرض عن حَمْل الأمانة ، وخرجت عن مرادها لمراد ربها ، فكانت مُسخَّرة . إذن : فهى أيضاً مُخيَّرة إلا أنها اختارتْ بكلمة واحدة منسحبة على الزمن كله ، أما الإنسان فاختار أنْ يكون مختاراً ينفذ أو لا ينفذ .

ثم إن السماء والأرض وما بينهما وما فيهما من مخلوقات وكواكب وأجرام وأفلاك تسير وفق نظام دقيق مُحكَم ، لا يشذ ولا يتخلف أبداً : ﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴿٥﴾ وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ﴿٦﴾﴾ [الرحمن]

وقال : ﴿ لا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾ [يس]

أما الإنسان فيتخبط فى الحياة ، ويخالف منهج ربه ، وينحرف عن الطريق الذى رُسِمَ له . إذن : أيّهما أعظم خَلْقاً ، وأشدّ تكويناً ، وأصحّ أداءً ؟ لا يسع هؤلاء الكفار رغم كفرهم إلا أنْ يقولوا : السماوات والأرض أشدُّ وأعظم من خَلْق الإنسان .

ومثال ذلك حين سألهم الله ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴿٨٧﴾ ﴾ [الزخرف] ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴿٣٨﴾ ﴾ [الزمر] لأن هذه كلها حقائق لا تُنكر ، حتى من الكفار .

ثم يسوق لهم الحق سبحانه دليلاً على صِدْق هذه المسألة ، فيقول : ﴿ إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّن طِينٍ لاَّزِبٍ ﴿١١﴾ ﴾ [الصافات] يعنى : هذا أصلهم ، فأين هم من خَلْق السموات والأرض ؟ ومعنى ﴿ لاَّزِبٍ ﴿١١﴾ ﴾ [الصافات] يعنى : طين متماسك بعضه ببعض ، فهو وَسَط بين السيولة والصلابة ، يعنى : أشبه ما يكون بطين الصَّلْصَال الذى نوزعه على التلاميذ فى المدارس ، والطين تراب وُضِع عليه الماء ، فإنْ زاد الماء صار الطين لَيِّناً يسيل من يدك ، وإنْ قَلَّ الماء جَفَّ وتصلَّبَ .

لذلك وقف المستشرقون عند مراحل التكوين الإنسانى يعترضون : من أىِّ شىء خُلِق الإنسان ، والقرآن قال ﴿ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ﴾ [المؤمنون] و ﴿ مِّن تُرَابٍ ﴿٥﴾ ﴾ [الحج] و﴿ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٣٣﴾ ﴾ [الحجر] و﴿ مِن صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ ﴿١٤﴾ ﴾ [الرحمن].وقد غاب عنهم أن هذه مراحل

للشيء الواحد كما قلنا ، فالماء يُوضَع على التراب فيصير طيناً ، ولو تُرِك هذا الطين إلى أنْ يعطن أو يتعفن يصير حمأ مسنوناً [1] ، فإنْ تُرِك حتى يجفّ يصير صَلْصالاً .

الحق سبحانه يُحدِّثنا هنا عن الخَلْق الأول للإنسان ﴿فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَا إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ (١١)﴾[الصافات] ؛ لأن آدم عليه السلام خُلِق من الطين ثم خُلِقت بعده حواء ، والقرآن قَصَّ علينا قصة خَلْق آدم ، لكن اكتفى في خَلْق حواء بقوله تعالى :﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا (١)﴾ [النساء]

قالوا : ﴿ منها ﴾ يعني من جنس تكوينها ، فيصح أن تكون حواءُ قد خُلِقت مثل آدم من الطين ، أو خُلِقَتْ من ضلع من أضلاعه ، وفي كلتا الحالتين تعود إلى أصل الطين ، والله تعالى يخلق ما يشاء ، وسبق أنْ بيَّنا طلاقة القدرة في عملية خَلْق الإنسان ، وأنها استوعبت كُلَّ الصور العقلية لهذه العملية ، فالله سبحانه يخلق من لا أب ولا أم ، ويخلق من أب بلا أم ، ويخلق من أم بلا أب ، وقد يجتمع الأب والأم ولا يحدث بينهما إنجاب .

يقول الحق سبحانه : ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ (٤٩) أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا (٥٠)﴾ [الشورى]

إذن : خُلِق الإنسان الأول ، وهو آدم عليه السلام من الطين ، وخُلِقَتْ من جنسه زوجه ، ثم جاءت الذرية من آدم بعد أنْ فارق

(١) الحمأ والحمأة : الطين الأسود . والمسنون : المصبوب في قالب إنساني أو مصوَّر بصورة إنسان أو طين كالفخار صالح للتصوير والصقل . [القاموس القويم ١/ ٢٣١] .

الطينية وصار إنساناً ، فنحن وإنْ جئنا من نسل إنسان ، إلا أنه يعود فى أصله إلى الطين ، فإنْ قُلْتَ : أين الطينيـة ، وقد تشكَّل شكلاً آخر غيـر الطين ، بدليل أنه إذا اسـتحم بالمـاء لا يذوب كمـا يذوب الطين وتتفكك جزئياته .

نقـول : لا بُدَّ أن يرد الإنسان الأصل أو الفـرع إلى الأصل الأول وهو الطين ؛ لأن الإنسان يتوالد ويتكاثر بواسطة الحيوان المنوى فى الذكـر والبويضــة فى الأنثى ، فـمن أين يأتى هذا وهذه ؟ من الدم ، والدم نتيجة الغـذاء ، والغذاء مصدره الأرض والطين . إذن : سنؤول لا مـحـالة إلى الـطين ، لكن من الطين مــرة بواسطة ، ومـرة بدون واسطة .

والحق سبحانه نبّهنا إلى هـذه المسألة فى قوله تعالى :﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ﴿٥٣﴾ ﴾ [فصلت]

فنحن لم نشاهد عـملية الخَلْق ، إنمـا أخبرنا الله بهـا ، فعلمنا أن الإنسان خُلِق من الـطين الذى مَرَّ بهذه المـراحل ، حتى نفخ الله فـيه الروح ، ودَبَّتْ فيه الحيـاة ، هذا كله لم نشاهده ، لكن شاهدنا الموت الذى ينقض الحـياة ، وعلـينا نحن أن نأخذ مـمـا نشاهده دليـلاً على صدق الغيب الذى أخبرنا الله به ولم نشاهده .

ونحن نعلم أن نَقْضَ الشىء يأتى على عكس بنائه ، فـالذى يهدم عمـارة مثـلاً من عدة أدوار يبـدأ بالدور الأخيـر ، كذلك يأتى الـموت عكس الحياة ، فأول شىء ، تخرج الروح ، ومعلوم أن نَفْخَ الروح فى الإنســان هى آخر مـرحلة فى مراحل الخَلْق ، فـإذا ما فـارقتْ الروحُ الجسدَ عاد إلى أصله ، حيث يرمّ الجـسد وتمتص الأرض ما فيه من

الماء ، ثم يتحلل الباقى ويعود إلى التراب الذى جاء منه .

ثم آخر ، هو أن الإنسان الذى خُلق من الطين وقوامه الغذاء الذى يخرج من الطين ، لما حلَّل العلماء جسمَ الإنسان وجدوه مُكوَّناً من ١٦ عنصراً . أولها : الأوكسجين ، ثم الكربون ، ثم الهيدروجين ، ثم النتروجين .. الخ . وهى نفس العناصر المكوِّنة للتربة الزراعية الخصْبة التى تعطينا القوت ، إذن : يكون هذا دليلاً على صدْق الحق - تبارك وتعالى - فى قوله : ﴿ إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ (١١) ﴾ [الصافات]

﴿ بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ (١٢) وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ (١٣) وَإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ (١٤) ﴾

معنى (بَلْ) إضراب عن الكلام السابق وبداية لكلام جديد (عَجِبْتَ) بالفتح أى : يا محمد . والعَجَبُ : هو استغراب وقوع شىء على خلاف نظائره ، ومن ذلك قوله تعالى فى العقائد : ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ..(٢٨) ﴾ [البقرة]

يعنى : كيف يحدث منكم الكفر بعد أنْ فعلنا بكم ذلك ؟ هذا شىء مُسْتغرب ، ومسألة عجيبة . يعنى : جاءت على خلاف ما يُنتظر منكم .

لكن من أىِّ شىء عجب النبى ﷺ ؟ عجب من إنكارهم ومن كفرهم ، مع وضوح الأدلة الدامغة على صدْق قضية الإيمان . وقد سُقْنا لهم الدليل تلْو الدليل ، ومع ذلك كذَّبوا ؛ لذلك قال تعالى مُخاطباً نبيه ﷺ فى موضع آخر : ﴿ وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ .. (٥) ﴾ [الرعد]

يعنى : وافق الله محمداً على أنْ يعجب . والمعنى : إنْ تعجب يا محمد فقولهم عَجَب . لكن عجب عند مَنْ ؟ يجوز عجب عند رسول الله ، ويجوز عجب عند الله تعالى ، إذن : هل يعجب الله تعالى كما نعجب ؟ قالوا : نعم ، بدليل أن فى هذه الآية قراءةً بالضم (بل عجبتُ)[1] بتاء المتكلم سبحانه ، وبدليل ما ورد فى الحديث الشريف : « تعجب ربك من شاب ليست له صَبْوة »[2]

لماذا ؟ لأنه خرج عن طبيعة التكوين الإنسانى ، أو قدر على نفسه وتحكم فيها ، بحيث لم يفعل ما يفعله الشباب ، فهذا شىء مستغرب منه ، ومعنى تعجب الحق سبحانه من هذا أنه يستغرب منه هذا العمل ؛ ليجازيه جزاءً مُستغرباً كذلك .

وسبق أنْ قُلْنا : إذا وُجدت صفة مشتركة بيننا وبين الحق سبحانه ، فعلينا أن نأخذها فى إطار ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ (١١) ﴾ [الشورى]

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ (١٤٢) ﴾ [النساء]

وقوله : ﴿ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ (٣٠) ﴾ [الأنفال]

لذلك إياك أن تقول : الله خادع أو الله ماكر ؛ لأن هناك فَرْقاً بين

---

(١) قراءه أهل المدينة وأبى عمرو وعاصم بفتح التاء خطاباً للنبى ﷺ ، وهى قراءة شريح وأنكر قراءة الضم وقال : إن الله لا يعجب من شىء ، وإنما يعجب من لا يعلم . وقرأ الكوفيون إلا عاصماً بضم التاء . واختارها أبو عبيد والفراء وهى مروية عن على وابن مسعود . قال الفراء : الرفع أحب إلىَّ ، لأنها عن على وعبد الله وابن عباس . والعجب إن أسند إلى الله عز وجل فليس معناه من الله كمعناه من العباد . [تفسير القرطبى ٥٧٠٨/٨] بتصرف .

(٢) عن عقبة بن عامر قال قال رسول الله ﷺ : « إن الله عز وجل ليعجب من الشاب ليست له صبوة » . أخرجه أحمد فى مسنده (١٥١/٤) وابن أبى عاصم فى السنة (١/ ٢٥٠) . وذكره الهيثمى فى مجمع الزوائد (١٠/ ٢٧٠) وعزاه لأحمد وأبى يعلى والطبرانى وقال : إسناده حسن .

أسماء الله تعالى وأفعال وصف الله بها نفسه سبحانه . فالمكر مثلاً من أفعال البشر يُراد به خداع الخصم والتخييل عليه ، لتستطيع أنت أنْ تنفذ إلى غَرَضك منه ، وهذا المكر يقابله مكْر مثله يشاكله أو أمكر منه .

والمكر مأخوذ من قولهم شجرة ممكورة ، وهى شجرة ذات عيدان ملفوفة بعضها على بعض ، بحيث لا تستطيع أنْ تميِّزها ، ولا أنْ تردَّ كل فرع فيها إلى أصله ، كذلك المكر فيه لفٌّ وحيل لتستر سيئاتك عن خَصْمك ، هذا فى مكر البشر بعضهم ببعض ، لكن إنْ مكر الله بك فلن ينجيك من مكره شيء ؛ لذلك قال سبحانه :﴿ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ (٥٤) ﴾ [آل عمران]

وقوله تعالى :﴿ وَيَسْخَرُونَ (١٢) ﴾[الصافات] السخرية هى الاستهزاء من الشيء ، والمعنى أنك تعجب يا محمد من نكرانهم وتكذيبهم مع وضوح الأدلة ، وهم يسخرون منك ومن تعجبك ﴿ وَإِذَا ذُكِّرُوا (١٣) ﴾[الصافات] يعنى : بآيات أخرى وبراهين ترشدهم ﴿ لا يَذْكُرُونَ (١٣) ﴾ [الصافات] أى : يُعرضون عنها ، ولا يلتفتون إليها ، ويصرون على الإنكار ﴿ وَإِذَا رَأَوْا آيَةً (١٤) ﴾ [الصافات] أى : دليلاً جديداً ﴿ يَسْتَسْخِرُونَ (١٤) ﴾ [الصافات] أى : يبالغون فى السخرية .

ففى الآية قبل السابقة قال : ﴿ وَيَسْخَرُونَ (١٢) ﴾[الصافات] وهنا ﴿ يَسْتَسْخِرُونَ (١٤) ﴾ [الصافات] هذا دليل على أن من هؤلاء المكذبين أناساً ترقُّ قلوبهم لآيات الله وللأدلة الإيمانية ، وحين ترقُّ قلوبهم تخفّ لديهم نزوة الكيد لمحمد ، فيكتفون بالتكذيب دون السخرية ؛

لأن الإباء يأتى على درجات ، فواحد يأبى أنْ يفعل ما تأمره به ، وآخر يأبى أن يفعل ويسخر منك .

فهؤلاء الذين يسخرون لا يكتفون بالسخرية من رسول الله ، إنما ﴿ يَسْتَسْخِرُونَ (١٤) ﴾ [الصافات] يعنى : يطلبون ممَّنْ لا يسخر أنْ يسخر ، يعنى : يستسخرون غيرهم ، إذن : هناك فَرْق بين يسخرون ويستسخرون ، حتى لا نقول كما يقول بعض المستشرقين : هذا تكرار فى كلام الله .

﴿ وَقَالُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ (١٥) ﴾

معنى ﴿ إِنْ هَٰذَآ (١٥) ﴾[الصافات] ما هذا إلا سحر ﴿ مُّبِينٌ (١٥) ﴾ [الصافات] يعنى : واضح ، والسحر كما قلنا تخييل شىء غير واقع ، فيُخيَّل إليك أنه واقع ، فالسحر لا يغير حقيقة الشىء ، إنما يسحر الناظر إليه ، كما قال تعالى فى سحرة فرعون : ﴿ .. سَحَرُوٓاْ أَعْيُنَ النَّاسِ (١١٦) ﴾ [الأعراف]

وقال : ﴿ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ (٦٦) ﴾ [طه]

إذن : أين السحر من دعوة محمد ﷺ ، ومن قضية الإيمان التى يدعو الناس إليها ؟ والرد على هذه الفرْية سهل وواضح : إذا كانت عند محمد القدرة على أن يسحر الناس ، فيؤمنوا بدعوته ، وسحر هؤلاء الذين آمنوا فلِمَ لم يسحركم أنتم ؟ إذن : هذا اتهام باطل لا معنى له .

ثم يعودون مرة أخرى إلى مسألة البعث ، ليسألوا عنها سؤالَ إنكار واستبعاد ، وهى أصل من أصول الدين لا يستقيم الإيمان إلا بها :

﴿ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَـٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿١٦﴾ أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴿١٧﴾ قُلْ نَعَمْ وَأَنتُمْ دَٰخِرُونَ[1] ﴿١٨﴾ ﴾

عجيب منهم إنكار البعث بعد ما سُقْناه إليهم من أدلة ، حتى إنْ أنكروا أدلتنا وكذَّبوا بها ، ألم يسمعوا من الأمم السابقة والرسالة التى مَضَتْ أن البعث حَقٌّ ؟ إذن : هو العناد والاستكبار عن قبول الحق .

لذلك ، فالقرآن الكريم يضرب لهم مثلاً ودليلاً على صدْق الإخبار بالبعث ، ويسوق هذه القصة من الأمم السابقة فى سورة البقرة :﴿ أَوْ كَالَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِى هَـٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ[2] وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا[3] ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٥٩﴾ ﴾ [البقرة]

هذه قصة واقعية ؛ لأن القرآن حكاها لنا عن الأمم السابقة ؛ لتكون دليلاً على قدرة الله على بَعْث الموتى ، وهى قصة رجل باحث

(١) داخرون : أذلاء صاغرون منقادون لأمر الله تعالى .[القاموس القويم ١/٢٢٢]
(٢) سنه الطعام يسنه : تغيَّر بعد مُضىِّ زمن عليه . [القاموس القويم ١/٣٣٢]
(٣) أنشز الشىء : رفعه وأبرزه وأقامه . أى . نرفع العظام بعضها فوق بعض حتى يتكوَّن هيكل عظمى كامل ثم نكسوها لحماً فيصير حماراً حياً كما كان . [القاموس القويم ٢/٢٦٧] .

عن الحقيقة ، جعله الله مثالاً ونموذجاً لنفسه أولاً ، ولمن جاء بعده ، فلما مَرَّ على القرية وهى على هذا الحال من الخراب استبعد أنْ تحيا بأهلها مرة أخرى ، فأماته الله ليُريه كيف يحيى الموتى .

وصدق الرجل فى قوله ﴿ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ (٢٥٩) ﴾ [البقرة] وصدق الله فى قوله ﴿ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ (٢٥٩) ﴾ [البقرة] كيف ؟ لأن عظام الحمار التى تحولت إلى تراب دَلَّتْ على المائة عام ، وطعامه الذى لم يتغير دَلَّ على يوم أو بعض يوم ، وهذا ليس عجيباً ، ما دام أن الفاعل هو الله عز وجل القابض الباسط ، فهو وحده القادر على أنْ يجمع بين الضِّدَّيْن ، فيقبض الزمن فى حَقِّ قوم ، ويبسطه فى حق آخرين .

ألم يأمر نبيه موسى - عليه السلام - أن يضرب بعصاه البحر ، فصار الماء كُلُّ فرْق كالطود العظيم ، وأمره أنْ يضرب بعصاه الحجر ، فانبجست[1] منه اثنتا عشرة عَيْناً ؟ إذن : هى طلاقة القدرة .

وعجيبٌ منهم أيضاً أنْ يسألوا عن الآباء ، مع أن قضية البعث واحدة ، فقولهم ﴿ أَوَ آبَاؤُنَا الأَوَّلُونَ (١٧) ﴾ [الصافات] دليل على تخبُّطهم ، أو ربما فهموا أن الذى سيموت حديثاً (طازة) يعنى : هو الذى سيُبعث ، أما القديم فبَعْثه غير ممكن .

ويردُّ الله عليهم (قُلْ) يعنى : قل لهم يا محمد بملءْ فيك (نَعَمْ) يعنى : ستُبعثون ، والنبى يقولها قَوْلة الواثق ؛ لأنه مأمور بها من قِبَل الله القادر على أنْ يبعث الخَلْق ﴿ قُلْ نَعَمْ وَأَنتُمْ دَاخِرُونَ (١٨) ﴾ [الصافات] يعنى : ستُبْعَثون حال كونكم ﴿ دَاخِرُونَ (١٨) ﴾ [الصافات]

(١) انبجست : تفجرت ونبعت فى قوة . [لسان العرب - مادة : بجس].

يعني: صاغرين أذلاء خاضعين ، جزاءَ اللَّدَد والعناد والاستكبار على قبول الحق في الدنيا ، كما قال تعالى في موضع آخر : ﴿بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ (٢٦)﴾ [الصافات]

﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ (١٩) وَقَالُوا يَا وَيْلَنَا هَٰذَا يَوْمُ الدِّينِ (٢٠) هَٰذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ (٢١)﴾

قوله تعالى ﴿فَإِنَّمَا هِيَ (١٩)﴾ [الصافات] أي : مسألة البعث ﴿زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ (١٩)﴾ [الصافات] صيحة[1] واحدة ، أو نفخة واحدة كافية لأن تُخرجهم من قبورهم ﴿فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ (١٩)﴾ [الصافات] لا أننا سنذهب إلى كل واحد منهم ونوقظه (اصحى يا فلان) إذن : البعث الذي تكذِّبون به أمرُه يسير علينا ، ولا يُكلِّفنا شيئاً .

والصيحة في ذاتها لا تبعث الموتى ، إنما هي مجرد إذْن للملَك ، بأن يباشر مهمته ، فهي مثل الجرس الذي يُبْدأ به العمل ، فبعد الزَّجْرة ﴿فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ (١٩)﴾ [الصافات] هكذا مباشرة ؛ لأن إذا هنا تدل على المفاجأة ، فالأمر لن يستغرق وقتاً ، وأول ما يقومون من القبور ينظرون أي : هنا وهناك ؛ لأنهم سيروْنَ أمراً عجيباً لا عَهْدَ لهم به ، وسيُفاجئهم ما كانوا يُكذِّبون به في الدنيا .

لذلك حكى القرآن عنهم في آية أخرى : ﴿رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا (١٢)﴾ [السجدة] وهي أول آية في القرآن يتقدم فيها البصر على السمع ؛ لأنهم أول ما يفاجئهم منظرٌ جديد لم يَرَوْهُ من قَبْلُ ، فينظرون إليه .

---

(١) قال الحسن البصري : هي النفخة الثانية ، وسميت الصيحة زجرة ؛ لأن مقصودها الزجر. أي : يُزجر بها كزجر الإبل والخيل عند السَّوْق . [تفسير القرطبي ٨/ ٥٧١٠].

فـإذا ما عـاينوا هذا المنظر ، قـالوا : ﴿ يَـٰوَيْلَنَا هَـٰذَا يَوْمُ الدِّينِ (٢٠) هَـٰذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِى كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ (٢١) ﴾ [الصـافات] هم الذين يقولون ، وهم الذين يدْعُـون على أنفسـهم بالوَيْل والثـبـور ، لا نقـولـهـا نحن ويلكم ، بل يقولونها هم ﴿ يَـٰوَيْلَنَا (٢٠) ﴾ [الصافات] يعنى : احضر ، فهذا أوانك ؛ لأنهم الآن تكشَّفَتْ لهم الحقائق وبَانَ كذبُهم وفسادُ تفكيرهم ، وما كـانوا فيه فى الدنيـا من اللَّدَد والعناد ، وأول ما يتبـين للإنسان فسادُ تفكيره وسوء عمله أوَّل ما يلوم يلوم نفسه ، فيدعو عليها .

وقولهم : ﴿ هَـٰذَا يَوْمُ الدِّينِ (٢٠) ﴾ [الصافات] يعنى : يوم الجزاء على الأعمال ، هذا الـجزاء الذى لم يؤمنوا به فى الدنيا ، ها هم يعـترفون به ، أو ﴿ هَـٰذَا يَوْمُ الدِّينِ (٢٠) ﴾ [الصـافـات] يعنى : هذا هو اليـوم الذى ينفع فيه الدين ، كما تقول لولدك وهو مُقبل على الامتحان : هذا يوم المذاكرة . يعنى : اليوم الذى لا تنفعك فيه إلا مذاكرتك .

ثم يقولون : ﴿ هَـٰذَا يَوْمُ الْفَصْلِ (٢١) ﴾ [الصافات] ثم يعترفون ﴿ الَّذِى كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ (٢١) ﴾ [الصـافات] والفصـل لا يكون إلا فى الخصـومة ، والخصومة هنا كانت بين الرسل وأقوامهم المكذِّبين لهم والمعاندين ، ومـثْل هذه الخـصومـة لا يُنهـيـهـا الجدل ؛ لأن المكـذبين لديهم لدَد وعناد ، وقد لا يُنهيها السيف حتى يموت الظالم دون أنْ يقتصَّ منه .

إذن : لا بُدَّ أنْ يأتى يوم للقصاص وللفـصل فى هذه الخصومات ؛ لذلك قـال أحدهم : والله لا يمـوت ظلوم حتى ينتـقمَ الله منه ، فـقال الآخر : كيـف وفلان ظلم كثيـراً ولم نَرَ فيه شيـئاً ؟ قال : والله ، إن وراء هذه الدار داراً أخرى يُجَازَى فيها المـحسن بإحسانه ، والمسىء بإساءته .

نعم ، لا بُدَّ من هذا اليوم ، وإلا لَـكانَ الظالم أحظَّ من المظلوم .

﴿ احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ(١) وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ (٢٢) مِن دُونِ
اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ (٢٣) وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ (٢٤) ﴾

أى : اجمعوا كل هؤلاء معاً فى النار ﴿ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ (٢٢) ﴾ [الصافات] إذن : المحشور ثلاثة : الذين ظلموا جزاءَ ظلمهم ، وأزواجهم ، وما كانوا يعبدونه من دون الله . قلنا : الزوج يعنى المفرد ومعه مثله . فلا نقول على الرجل والمرأة زوج ، إنما زوجان ، الرجل يسمى (زوج) والمرأة تسمى (زوج) ، لا أن الزوج يعنى الاثنين كما يظن البعض ، ومثلها كلمة توأم ، فكل واحد منهما يُسمَّى توأم ، وهما معاً توأمان ؛ لذلك قال تعالى فى سورة الأنعام : ﴿ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِّنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنثَيَيْنِ .. (١٤٣) ﴾ [الأنعام]

وقال : ﴿ مِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ .. (١٤٤) ﴾ [الأنعام]

فلو أن الزوج يُطلق على الاثنين لقال : أربعة أزواج .

ومعنى كلمة ﴿ وَأَزْوَاجَهُمْ (٢٢) ﴾ [الصافات] أى : أزواجهم فى الدنيا ، كالزوجة التى تعين زوجها على الظلم ، كامرأة أبى لهب ، التى قال الله فى حقها : ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ (١) مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ

---

(١) الزوج هنا بمعنى الشكل أو الصنف يكون له نظير أو نقيض ، كالرطب واليابس والذكر والأنثى . [القاموس القويم ١/٢٩١] . وقد أورد القرطبى فى تفسيره [٨/٥٧١٢] عدة معان لكلمة أزواج فى الآية :
- « يحشر الكافر مع الكافر . قاله قتادة وأبو العالية .
- يحشر الزانى مع الزانى ، وشارب الخمر مع شارب الخمر ، وصاحب السرقة مع صاحب السرقة . قاله عمر بن الخطاب
- يحشر معهم نساؤهم المرافقات على الكفر . قاله مجاهد والحسن .
- يحشر معهم قرناؤهم من الشياطين ، قاله الضحاك ومقاتل بنحوه » .

وخلاصة القول فى معنى (أزواجهم) : أشباههم وأمثالهم .

(٢) سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ (٣) وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ (٤) فِي جِيدِهَا[1] حَبْلٌ
مِّن مَّسَدٍ (٥) ﴾ [المسد]

أو يُراد بأزواجهم أشكالهم ونظائرهم وقرناءهم الذين أضلُّوهم وأغوَوْهم ﴿ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ (٢٢) مِن دُونِ اللَّهِ.. (٢٣) ﴾ [الصافات] أى: الأصنام التى عبدوها من دون الله، تُحشَر معهم فى النار، ليَروْا آلهتهم التى عبدوها وتعلّقوا بها تسبقهم إلى النار، فينقطع أملهم فى النجاة وبيان لفساد تفكيرهم، حيث عبدوا أصناماً لا تضرُّ ولا تنفع، وهذا توبيخ لهم؛ لذلك يمتدُّ هذا التوبيخ بعنف فى قوله تعالى: ﴿ فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ (٢٣) ﴾ [الصافات] وهل القذف فى النار هُدىً؟ والمعنى: دُلُّوهم على طريق جهنم، يعنى: سخريةً منهم وتهكماً بهم.

ثم يقول سبحانه: ﴿ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ (٢٤) ﴾ [الصافات] أى: احبسوهم للسؤال وللحساب، وهذا السؤال سيكون فردياً ليس جماعياً، فكل واحد منهم سيُسأل وسيُناقش، قالوا: فى السؤال تبكيت النفسِ للنفس قبل أن يُبكِّتهم الله الذى كفروا به، يعنى: ساعةَ يعاينون البعث وموقف الحساب يُبكِّتون أنفسهم، ويندمون ساعةَ لا ينفعُ الندم.

﴿ مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ (٢٥) بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ (٢٦) ﴾

وهذا الاستفهام أيضاً على سبيل السخرية والتهكُّم، يعنى: ما لكم الآن لا ينصر بعضكم بعضاً وكنتم تَنَاصرون فى الدنيا،

(١) الجيد: العنق. المسد: الحبل من الليف أو الخوص أو الشعر أو الوبر. وهو الحبل المضفور المحكم الفتْل، قد لُوِى لَيّاً شديداً. [لسان العرب - مادة: مسد].

الأتباع ينصرون السادة ، والسادة يُجنِّدون الأتباع ، وما أشبههم فى هذا الموقف بالمثل القائل : وافق شنٌ طبقه ، أو قولنا (اتلم المتعوس على خايب الرجا) .

لذلك يقول تعالى بعدها : ﴿ بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ (٢٦) ﴾ [الصافات] أى : خاضعين منقادين أذلاَّء مُهانين ، ونحن نقول : رفع الراية البيضاء . يعنى : لم يَعُدْ لديه شىء من القوة يدافع بها عن نفسه ، ولا حجة ولا منطق ، إنه الآن قاعد فى ذلَّة وصَغَار ، ينتظر أمر الله فيه .

﴿ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ (٢٧) قَالُوٓاْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ ٱلْيَمِينِ (٢٨) قَالُواْ بَل لَّمْ تَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ (٢٩) وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ ۖ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَٰغِينَ (٣٠) ﴾

تأمل هذه المواجهة بين التابع والمتبوع ، بعد أنْ ظهرت خيبة الجميع وتكشَّفَتْ الحقائق التى طالما أنكروها فى الدنيا وكذَّبوا بها ، إنهم الآن يُلْقى كل منهم بالمسئولية على الآخر ، ويتساءلون فيما بينهم .

﴿ قَالُوا (٢٨) ﴾ [الصافات] أى : الأتباع ﴿ إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ (٢٨) ﴾ [الصافات] اليمين يعنى من جهة اليمين ، واليمين منه اليمن والتيمن ، واليمين جهة الخير ؛ لذلك أمرنا النبى ﷺ بالتيمُّن[(١)] فى كل شىء ، فبها نُسلِّم ، وبها نأكل ونشرب ، ونتناول الأشياء ونكتب ، لأنها مُشرَّفة مُكرَّمة ، حتى العرب قديماً كانوا يتفاءلون بجهة اليمين لو طار الطيرُ ناحية اليمين .

(١) أخرج البخارى فى صحيحه (١٦٨ ، ٤٢٦ ، ٥٣٨٠) من حديث عائشة رضى الله عنها قالت : كان النبى ﷺ يعجبه التيمن فى تنعله وترجله وطهوره ، فى شأنه كله .

واليمين أيضاً من معانيها أنها مصدر القوة فى الفعل ، وغالبية الناس يستخدمون اليمين ، وهى عندهم الأقوى ، وقد سُئلْنا مرة عن الذين يعملون بالشمال : هل ننهاهم عن ذلك ؟ نقول : العمل باليمين أو اليسار ليس مجرَّد تعوُّد ، إنما هو تكوين طبيعى فى الجسم ، ففى الجسم مركز يتحكم فى توزيع القوة ، فبعض الناس يميل مركز القوة عندهم ناحية اليمين ، فتكون يمينه أقوى من شماله ، وبعضهم العكس ، وبعضهم يتساوى عنده مركز القوة ، فيعمل باليمين ويعمل باليسار بنفس القوة ، وهذا يُسمُّونه (الأضبط)[1] مثل سيدنا عمر رضى الله عنه .

ومن معانى اليمين أيضاً الحلف والقَسَم . وهذه المعانى كلها واردة فى معنى هذه الآية ﴿ إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ (٢٨) ﴾ [الصافات] يعنى : من جهة الخير والحق لتصرفونا عنه ، أو من ناحية البطش والقوة لتجبرونا على الفعل ، أو بالحلف يعنى : تحلفون لنا أن هذا هو الطريق الصحيح ، لا طريق غيره .

ويرد المتبوعون على التابعين ﴿ قَالُوا بَل لَّمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٢٩) ﴾ [الصافات] يعنى : ما أخرجناكم من الإيمان إلى الكفر ، بل كنتم بطبيعة الحال غير مؤمنين ، وبمجرد أنْ أشرنا إليكم سرْتم خلفنا وتابعتمونا ﴿ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ (٣٠) ﴾ [الصافات] والسلطان إما سلطانُ قوة يقهركم على الفعل ، وإما سلطان حجة يقنعكم بالكفر ، فليس لنا عليكم لا سلطانُ قوة وقهر ، ولا سلطان حجة وإقناع .

﴿ بَلْ كُنتُمْ (٣٠) ﴾ [الصافات] بطبيعتكم ﴿ قَوْمًا طَاغِينَ (٣٠) ﴾ [الصافات] أى : متجاوزين للحدِّ فى الكفر وفى الضلال . وهذه تعليمة إبليس يقولها

---

(١) الأضبط : هو الذى يعمل بيديه جميعاً ، يعمل بيساره كما يعمل بيمينه . قاله أبو عبيد . وهو الذى يقال له أعسر يَسَرٌ . [لسان العرب - مادة : ضبط]

لأتباعه فى الآخرة حين يتبرأ منهم ويُلقى عليهم مسئولية كفرهم ، كما حكاه القرآن الكريم : ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم (٢٢)﴾ [إبراهيم]

﴿فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَآ إِنَّا لَذَآئِقُونَ (٣١) فَأَغْوَيْنَٰكُمْ إِنَّا كُنَّا غَٰوِينَ (٣٢) فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ (٣٣) إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ (٣٤)﴾

معنى ﴿فَحَقَّ (٣١)﴾ [الصافات] أى : وقع ووجب ﴿عَلَيْنَا (٣١)﴾ [الصافات] أى : جميعاً التابع والمتبوع ، الجميع وجب له العذاب ، والحق هو الشيء الثابت الذى لا يتغير ، وهذا المعنى ورد فى القرآن بأساليب ثلاثة : ﴿سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ (٤٠)﴾ [هود] ، و ﴿حَقَّ الْقَوْلُ (٧)﴾ [يس] ، و﴿وَقَعَ الْقَوْلُ (٨٢)﴾ [النمل]

فقد سبق منَّا أنْ أخبرنا بحدوث الشيء ، وقد تحقق بالفعل ما أخبرنا به وتحقُّقه بوَقْع يعنى : بقوة وبشدة . وقالوا : إن كلمة ﴿وَقَعَ الْقَوْلُ (٨٢)﴾ [النمل] لم تُستخدم إلا فى الشرِّ ، ما عدا مرة واحدة استُخدمت فى الخير ، وهى قوله تعالى : ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ..(١٠٠)﴾ [النساء]

وتأمل قوله سبحانه : ﴿إِنَّا لَذَائِقُونَ (٣١)﴾ [الصافات] ولم يقولوا مُعذَّبون أو مُحرَّقون ، لأن العذاب أو الإحراق يمكن أنْ ينتهى فى وقت من الأوقات ، أما الإذاقة فهى دائمة ومستمرة ، وهذا المعنى

واضح فى قوله تعالى : ﴿ كُلَّمَا نَضِجَتْ[1] جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ ﴿٥٦﴾ ﴾ [النساء]

وقد اكتشفنا مُؤخَّراً أن الجلد هو مركز الإحساس لا المخ ، بدليل أنك حين تأخذ حقنة مثلاً تشعر بالألم بمجرد أن تنفذ الإبرة من منطقة الجلد ، وبعد ذلك لا تشعر بألم ، هذه الحقيقة قررها الحق سبحانه فى قوله : ﴿ كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا ﴿٥٦﴾ ﴾ [النساء] لماذا ؟ ﴿ لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ ﴿٥٦﴾ ﴾ [النساء] فإذاقة العذاب فى نفس الجلد .

وقولهم : ﴿ فَأَغْوَيْنَاكُمْ ﴿٣٢﴾ ﴾ [الصافات] أى : دَلَلْنَاكم على طريق الغواية والضلال ، والغاوى هو الذى ضلَّ طريق الخير والحق ﴿ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ ﴿٣٢﴾ ﴾ [الصافات] والمعنى : إنْ كُنَّا نحن ضالين غاوين ، فلماذا نتركُكم للهداية وللإيمان ، لا بُدَّ أنْ تشربوا معنا من نفس الكأس ، وهذا منطق أستاذهم إبليس ، فلما عصى وطُرد من رحمة الله أقسم أنْ يُضلَّ معه ذرية آدم ، ليكونوا مثله فى الضلال .

ثم يُنهى الحق سبحانه هذه المواجهة بين أهل الباطل ، ويقرر هذه الحقيقة ﴿ فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ ﴿٣٣﴾ ﴾ [الصافات] أى : يوم القيامة ﴿ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [الصافات] وهذه سُنَّتنا فى أهل الضلال ﴿ إِنَّا كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾ [الصافات] والمجرم هو الذى يُكذِّب بقضية الإيمان الأولى ، وهى التوحيد ؛ لذلك يصفهم الحق سبحانه فى الآية بعدها :

﴿ إِنَّهُمْ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾
وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍۭ ﴿٣٦﴾ بَلْ جَآءَ
بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٧﴾ ﴾

(١) نضجت جلودهم : المراد احترقت . [القاموس القويم ٢/ ٢٧٠]

قوله سبحانه : ﴿ إِنَّهُمْ (٣٥) ﴾ [الصافات] أى : الكفار الذين وُصفُوا بالإجرام ﴿ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لا إِلَـهَ إِلاَّ اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ (٣٥) ﴾ [الصافات] أى : يستكبرون عن قبولها والتصديق بها ﴿ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا (٣٦) ﴾ [الصافات] يعنى : منصرفون عن عبادتها ﴿ لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ (٣٦) ﴾ [الصافات] أى : من أجله ، ومن أجل دعوته .

وعجيب من العرب وهم أمة كلام يُقدِّرون الكلمة ويتذوَّقونها ، ويجعلون لها أسواقاً ومعارض ، ويُكرِّمون الشعر والشعراء ، لدرجة أنهم علَّقوا أجود قصائدهم على أستار الكعبة ، عجيب من قوم هذا حالهم أنْ يقولوا ﴿ آلِهَتِنَا (٣٦) ﴾ [الصافات] وهم يعلمون تماماً معنى الآلهة ومعنى العبادة ، فالإله يعنى المعبود فبأى حَقٍّ عُبِدَتْ الأصنام ؟ بماذا أمرتكم ؟ وعن أى شيء نهتْكم ؟ ما المنهج الذى جاءتكم به ؟

نعم هم يعلمون أنها جمادات ، لا تضر ولا تنفع ، لكن عبدوها بفطرة التديُّن فى الإنسان ، فالإنسان بطبعه مُتدين يحب أن يستند إلى قوة أعلى منه يلجأ إليها عند الشدة ، قوة تعينه على التجلُّد والتصبُّر للأحداث ، وقد وجدوا فى هذه الآلهة أنها آلهة بلا تكاليف وبلا متطلبات ، فعبدوها من دون الله .

ثم عجيبٌ منهم وهم أمة كلام ألاَّ يفرقوا بين كلام الله فى القرآن وبين الشعر ، وهم أعلم الناس به وبأوزانه وقوافيه ، فأين الشعر من كلام الله فى القرآن ؟ ثم عجيب منهم أنْ يتهموا رسولَ الله بالجنون ، وهم أعلمُ الناس به وبأخلاقه وصفاته وسيرته فيهم قبل بعثته ، وما أبعدَ الجنون عن الذى جمع محاسن الصفات وكريم الأخلاق !!

الجنون أنْ يتصرّف المجنون بجوارحه تصرُّفاً لا يمرُّ على العقل ، المجنون لا يفاضل بين الأشياء ، ولا يعرف الضَّارَّ من النافع ،

المجنون ليس له خُلُق ، لذلك يردُّ الحق عليهم ويدفع عن رسوله اتهاماتهم ، فيقول : ﴿نٓ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ (١) مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ (٢) وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ (٣) وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ (٤)﴾ [القلم]

لذلك يقول تعالى هنا : (بل) وهى للإضراب عن الكلام السابق ، يعنى : دَعْكَ من هذا الهُرَاء ﴿بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ (٣٧)﴾ [الصافات] بالشىء الثابت الذى لا يتغير ﴿وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ (٣٧)﴾ [الصافات] صدق مَنْ سبقوه من الرسل فى منهج الله .

﴿إِنَّكُمْ لَذَآئِقُوا۟ (١) ٱلْعَذَابِ ٱلْأَلِيمِ (٣٨) وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٣٩)﴾

فى الآيات السابقة قال سبحانه حكايةً عن الظالمين قولَ المتبوعين لأتباعهم : ﴿فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ (٣١)﴾ [الصافات] وهنا يؤكد هذا المعنى ، إلا أنه يُصرِّح هنا بنوع الإذاقة ﴿لَذَائِقُوا الْعَذَابِ الْأَلِيمِ (٣٨)﴾ [الصافات] وهذا العذاب الأليم ليس ظلماً ولا تعدياً ، إنما جزاء ما قدَّمتم : ﴿وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٣٩)﴾ [الصافات]

وبعد الحديث عن أهل الكفر واللَّدَد وأهل الإجرام والعناد ، وبيان مصيرهم ، وما ينتظرهم من الجزاء يُتبع الحق سبحانه هذا بالحديث عن أهل الإيمان الذين أخلصوا العبادة لله ، والجمع بين المتقابلين أسلوب من أساليب القرآن ، كما فى قوله سبحانه : ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ (١٣) وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ (١٤)﴾[الانفطار] وبضدِّها تتميز الأشياء ، والشىء بعد

---

(١) حذفت النون من (ذائقون) تخفيفاً ، وأضيفتْ لما بعدها . القرطبى فى تفسيره (٥٧١٥/٨) .

ذكر مقابله يتبين حُسْنه ، كما قال الشاعر[1] واصفاً محبوبته :

فَالوَجْهُ مِثْلُ الصُّبْحِ مُبْيضٌ   والشَّعْرُ مثْلُ اللَيْلِ مُسود

ضِدَّانِ لَمَّا اسْتُجْمِعَا حَسُنَا   والضدُّ يُظْهِرُ حُسْنَهُ الضِدُّ[2]

لذلك يذكر الحق سبحانه ما أعدَّه للمؤمنين المخلصين ، بعدما ذكره من جزاء الظالمين المكذِّبين ، لينشىء الحسرة فى نفوسهم ، فتكون عذاباً جديداً يضاف إلى عذابهم فى النار.

يقول تعالى :

﴿ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤١﴾
فَوَٰكِهُ ۖ وَهُم مُّكْرَمُونَ ﴿٤٢﴾ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٤٣﴾ عَلَىٰ سُرُرٍ[3] مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٤﴾
يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍۭ[4] ﴿٤٥﴾ بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٤٦﴾
لَا فِيهَا غَوْلٌ[5] وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾

---

(١) هو : أبو الشيص الخزاعى ، محمد بن على بن عبدالله ، شاعر سريع الخاطر رقيق الألفاظ ، ولد (١٣٠ هـ) ، من أهل الكوفة ، غلبه على الشهرة معاصراه صريع الغوانى وأبو نواس. هو ابن عم دعبل الخزاعى ، عَمِى فى آخر عمره ، قتله خادم لعقبة فى الرقة (توفى ١٩٦هـ) . [الموسوعة الشعرية]

(٢) البيتان من قصيدة لأبى الشيص الخزاعى من بحر أحذّ الكامل ، عدد أبياتها ٦٦ بيتاً ، ولكن لفظ البيت (منبلج) وليس (مبيض) .

(٣) مما ورد فى هذا ما ذكره ابن القيم فى كتابه « حادى الأرواح إلى بلاد الأفراح » (ص٢٤٥) وعزاه لابن أبى الدنيا من حديث أنس أن رسول الله ﷺ قال : « إذا دخل أهل الجنة الجنةَ فيشتاق الإخوان بعضهم إلى بعض . قال : فيسير سرير هذا إلى سرير هذا ، وسرير هذا إلى سرير هذا ، حتى يجتمعا جميعاً ، فيقول أحدهما لصاحبه : تعلم متى غفر الله لنا ؟ فيقول صاحبه : يوم كنا فى موضع كذا وكذا فدعونا الله فغفر لنا .

(٤) قال الزجاج : (بكأس من معين) أى : من خمر تجرى كما تجرى العيون على وجه الأرض ، والمعين : الماء الجارى الظاهر . [القرطبى فى تفسيره ٥٧١٧/٨].

(٥) أورد السيوطى فى الدر المنثور (٨٧/٧) عن قتادة : (لا فيها غول ولا هم عنها ينزفون) قال : لا تُذهب عقولهم ، ولا تصدع رؤوسهم ، ولا توجع بطونهم ، عزاه لعبد الرزاق وابن =

سبق الحديث عن جزاء الكافرين ، وهنا استثناء ﴿ إِلاَّ عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (٤٠) ﴾ [الصافات] فهم مُسْتَثْنون بعيدون من هذا المصير ، وكلمة ﴿ الْمُخْلَصِينَ (٤٠) ﴾ [الصافات] جمع مخلَص بالفتح ، فهى اسم مفعول . يعنى : الذين أخلصهم الله واصطفاهم لطاعته وعبادته ﴿ أُوْلَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ (٤١) ﴾ [الصافات] أى : فى الآخرة لأن رزق الدنيا ليس معلوماً ؛ لأنك تكدُّ وتتعب فى الدنيا ، وقد تُحرَم ثمرة هذا الكدِّ ، فالزراعة قد تبور ، والتجارة قد تخسر .

إذن : لنا رزق فى الدنيا ، لكنه غير معلوم ، أما فى الآخرة فرزْقُكَ معلوم مُخصَّص لك لا يتخلف أبداً ، ولا تحول دونه الأسباب ؛ لأنك تعيشُ فى الآخرة - كما قلنا - مع المسبِّب سبحانه .

وسبق أنْ عرَّفنا الرزق وقلنا : إنه كلُّ ما يُنتفَعُ به ، حتى ما يُؤخذ من الحرام يُعَدُّ رزقاً ؛ لذلك قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ (١٧٢) ﴾ [البقرة]

ثم ينتقل السياق إلى تفصيل ما أجمل فى كلمة (رزق) . وأهم رزق ينتفع به المرء هو القُوت الضرورى الذى به قوَام حياته ، ثم التفكّه بما يُرفِّه هذه الحياة ، لكن الحق سبحانه هنا لم يذكر الضروريات ، إنما ذكر الترف الزائد على الضروريات ﴿ فَوَاكِهُ وَهُم مُّكْرَمُونَ (٤٢) ﴾ [الصافات] مع أنه فى مواضع أخرى ذكر الضروريات ، ثم أتبعها بالفاكهة والتَّرَفيات ، مثل قوله سبحانه : ﴿ لِيَأْكُلُوا مِن ثَمَرِهِ

= أبى شيبة وابن جرير وابن أبى حاتم .

- وعن ابن عباس قال : فى الخمر أربع خصال : السُّكْر والصداع والقىء والبول . فنزَّه الله خمر الجنة عنها (لا فيها غول) لا تغول عقولهم من السُّكْر (ولا هم عنها ينزفون) لا يقيئون عنها كما يقىء صاحب خمر الدنيا عنها ، والقىء مستكره . عزاه السيوطى فى الدر المنثور (٧/٨٨) لابن أبى حاتم وابن مردويه .

وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلا يَشْكُرُونَ (٣٥) ﴾ [يس]

إذن : لماذا اقتصر الكلام هنا على الفاكهة فحسب ؟ قالوا : لأن الكلام هنا عن الآخرة ، والأكل في الآخرة لا يكون عن حاجة إلى الطعام ، إنما يكون متعةً وتفكُّهاً بالأكل . أو : يكون المراد أن الله تعالى ما دام قد ضمن لك التفكُّه ، فمن باب أوْلَى ضمن لك القُوتَ الضروري .

ومعنى ﴿ وَهُم مُّكْرَمُونَ (٤٢) ﴾ [الصافات] أي : أنهم لا يُرْمَى لهم الأكل ليأكلوا ، كما نرمي الحشيش للبهائم مثلاً ، لا نقصد بذلك إكرامهم ، إنما يُسَاق لهم هذا الرزق ﴿ وَهُم مُّكْرَمُونَ (٤٢) فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (٤٣) ﴾ [الصافات] لأنه رِزْقُ المحبِّ لأحبابه .

وقوله تعالى : ﴿ عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ (٤٤) ﴾ [الصافات] يعني : لا يكلِّفهم مشقة التزاور ، فالسُّرُرُ التي يجلسون عليها متقابلةٌ ، بحيث إنْ أردتَ أنْ تزورَ أخاً لك تجده أمامك ، دون أن تنتقل إليه ، فهذه مسألة مضمونة .

﴿ يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ (٤٥) ﴾ [الصافات] ، وفي آية أخرى بيَّن سبحانه الذين يطوفون بهذه الكأس ﴿ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ (١٧) بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ (١٨) ﴾ [الواقعة]

الكأس يُرَاد بها الخمر أو القدح الذي يُوضَع فيه الخمر ﴿ مِّن مَّعِينٍ (٤٥) ﴾ [الصافات] يعني : من شيء تراه بعينيك ، أو من عيون تجري كما تجري عيون الماء . ثم يصف هذه الخمر بأنها (بيضاء) والبيضاء هي أصْفَى أنواع الخمر عند العرب .

﴿ لَذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ (٤٦) ﴾ [الصافات] ولم يقُلْ لذيذة . إنما (لَذَّة) أي :

هى فى ذاتها لذّة ، وكأن اللذة تجسدتْ فى هذه الكأس ، كما تقول : فلان عادل . فإنْ أردتَ المبالغة فى هذا الوصف قُلْتَ : فلان عَدْلٌ .

ووصف الخمر فى الآخرة بأنها ﴿لَذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [الصافات] ليُفرِّق بينها وبين خَمْرِ الدنيا ، لأن خمر الدنيا كما نراهم يشربونها فى الأفلام لا تُشرَب للذة ، لأنه يضع القليل منها فى الكأس ، ثم يصبُّها فى فمه صبّاً ، ويتناولها على مَضَضٍ لكراهية طعمها .

لكن طالما أن خمر الدنيا لا لَذَّةَ فى تعاطيها ، فَلِمَ يشربونها ؟ يشربونها للأثر الذى ينشأ منها من اختلال العقل الذى يُعَدُّ حارساً على الحركة ، وهم يريدون الانطلاق والحرية من هذا الحارس ؛ لذلك فأجوَدُ أنواع الخمر عندهم والعياذ بالله ، هذه التى تُغيِّبه عن وَعْيه ، وتفعل به كذا وكذا .

أما خمر الآخرة فلا يجمعها بهذه إلا اسمها فحسْب ، خمر الآخرة لذَّةٌ ، تشعر بها حين تتناولها ، وتأخذها رشفةً رشفةً على مهل لتتذوّقَ حلاوتها ، ثم هى لا تذهب بالعقل ولا تغتاله ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ ﴿٤٧﴾﴾ [الصافات] أى : لا تغتال العقول ، ولا تذهب بها .

﴿وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [الصافات] نقول : انزف الحوض . يعنى : أفرغه من الماء بالتدريج إلى نهايته ، ونزفَ الدمُ يعنى : سَالَ من الجسم واحدة واحدة ، إلى أنْ يموتَ الإنسان .

ومن أنواع الخمر ما يُسبِّب نَزْفاً لما فى البطن ، بحيث يفرغ شاربها كل ما فى بطنه ، ويُخرِج كلَّ ما فى جَوْفه . أما خمر الآخرة فلا تُسبِّب هذا النزف .

أو : يكون المعنى ﴿وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [الصافات] أى :

لا تُستنزف عقولهم ، ولا يَسْكَرون بسببها ، كما تُسكِر خَمْر الدنيا[1] .

﴿ وَعِندَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ ﴿٤٨﴾ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴿٤٩﴾ ﴾

هذا وَصْف لنساء الجنة فهُنَّ ﴿ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ .. ﴿٤٨﴾ ﴾ [الصافات] يعنى : تغضّ بصرها ، فلا تنظر إلى غير زوجها ، وقلنا : إن أغلى ما يتملّكه الإنسان يمكن أنْ يهبه لغيره ، فأنت تُعيرُ صاحبك سيارتك مثلاً أو بيتك أو ثوبك .. الخ

أما المرأة فهى الشىء الوحيد الذى لا تقبل مجرد النظرة إليها ، لمَا لها من خُصُوصية ومنزلة ، كذلك تحبُّ من زوجتك ألاَّ تمتدَّ عَيْنُها إلَى غيرك ، وهذه من صفات أهل الجنة فَهُنَّ ﴿قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ .. ﴿٤٨﴾ ﴾ [الصافات] تقصر نظرها على زوجها ، وهُنَّ كما فى آية أخرى : ﴿ حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِى الْخِيَامِ ﴿٧٢﴾ ﴾ [الرحمن] يعنى : مأسورات محفوظات لأزواجهن .

فالحق سبحانه يحفظ حُسْن المرأة ، ويحرص على التكوين العفيف فى المجتمع ، ليأتىَ النسْلُ شريفاً طاهراً ، وهذه المقاييس التى للمؤمنة فى الدنيا هى كذلك فى الآخرة ، فكأن الحق سبحانه يُطمئن الأزواج على هذه الخصوصية ، ويؤكد أن الزوجة فيها لا يشاركه فيها أحد ، ولو حتى بالنظرة .

---

(١) عن ابن عباس قال : (لا ينزفون) : لا يسكرون . ومجاهد : لا تذهب عقولهم . (أخرجه هناد وعبد بن حميد وابن أبى حاتم) . وعن سعيد بن جبير : لا مكروه فيها ولا أذى . (أخرجه عبد بن حميد وابن جرير وابن أبى حاتم) . أورد هذه الآثار السيوطى فى الدر المنثور (٧/ ٨٨) .

ومعنى ﴿ عِينٌ (٤٨) ﴾ [الصافات] عين جمع عَيْناء . يعنى : واسعة العينين مع حُسْنهما ، وهذه من علامات الملاحة والحُسْن فى المرأة عند العرب ؛ لذلك من المقاييس التى وضعوها للجمال أنَّ العين تكون واسعة ، والفم ضيق ، بحيث إذا قِيستْ عينها بفمها ، كانت عينُها أوسع .

ومعنى (عندهم) يعنى : فى حَوْزتهم ؛ لأنها من مَتَاع الجنة ، فمَن اشتهى منهن شيئاً وجده وإلاَّ ترفَّع عنها ، لكن هى موجودة عندهم .

ثم يصفهُنَّ سبحانه بقوله : ﴿ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ (٤٩) ﴾ [الصافات] كلمة ﴿ بَيْضٌ (٤٩) ﴾ [الصافات] جمع بيضة ، والمراد بيضة النعام[1] ؛ لأنها أكبر وأجمل فى اللون . ويقولون لمن يحمى الجمَال فى قبيلته : يحمى بيضتها ؛ لذلك وصف البيض هنا بأنه ﴿ مَّكْنُونٌ (٤٩) ﴾ [الصافات] مُصَان مستور لم تُمدّ إليه يدٌ .

﴿ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ (٥٠) قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ (٥١) يَقُولُ أَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ (٥٢) أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَدِينُونَ (٥٣) ﴾

سبق أن استمعنا إلى حوار دار بين الكافرين المجرمين فى النار.

وهنا يحكى لنا الحق سبحانه هذا الحوارَ بين أهل الجنة يتساءلون عن أهل الظلم ، وأهل الضلال والغواية وأهل التكذيب ، أين هم الآن ؟ وما مصيرهم ؟

---

(١) قال الحسن وابن زيد : شُبِّهن ببيض النعام ، تُكنّها النعامة بالريش من الريح والغبار ، فلونها أبيض فى صفرة ، وهو أحسن ألوان النساء . نقله القرطبى فى تفسيره (٥٧١٩/٨)، وذكره السيوطى فى الدر المنثور (٨٩/٧) وعزاه لابن أبى حاتم عن زيد بن أسلم .

﴿ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ (٥١) ﴾ [الصافات] من أهل الجنة ﴿ إِنِّى كَانَ لِى قَرِينٌ (٥١) ﴾ [الصافات] أى : صاحبٌ فى الدنيا ﴿ يَقُولُ أَئِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ (٥٢) ﴾ [الصافات] أى : بالبعث ﴿ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَدِينُونَ (٥٣) ﴾ [الصافات] يعنى : محاسبون . وهذا السؤال منه على سبيل التكذيب والإنكار لقضية البعث والحساب .

﴿ قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ (٥٤) فَاطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِى سَوَآءِ[1] الْجَحِيمِ (٥٥) قَالَ تَاللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ (٥٦) وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّى لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ (٥٧) ﴾

القرآن يُصوِّر لك هذا الموقف كأنك تراه ، ويحكيه كأنك تسمعه ، فبينما أهل الجنة مشغولون فى تساؤلهم عن أهل الضلال ممَّنْ كانوا يعرفونهم فى الدنيا ، إذ نظر أحدهم فاطلع على أهل النار ، فرأى صاحبه الذى حاول أنْ يُضلَّه ، صاحبه المكذِّب بالبعث وبالحساب .

فقال لجلسائه : انظروا هذا فلان فى النار .

﴿ فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِى سَوَاءِ الْجَحِيمِ (٥٥) ﴾ [الصافات] أى : فى وسطها ، فلا أملَ له فى النجاة منها ، عندها تذكَّر المؤمنُ نعمةَ الله التى شملتْه وأنقذتْه من هاوية الضلال ، التى كاد أنْ يُوقعه فيها صاحبه ، فقال مخاطباً هذا القرين : ﴿ تَاللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ (٥٦) ﴾ [الصافات] أى : تُهلكنى معك ﴿ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّى .. (٥٧) ﴾ [الصافات] أى : تداركَتْنى وأنقذتنى

(١) سواء الشيء وسواه وسُواه : وسطه . [لسان العرب مادة : سوا] وقال ابن مسعود : أى فى وسط النار والحسك (الشوك) حواليه . [نقله القرطبى فى تفسيره (٨/٥٧٢٢)] .

﴿ لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ[1] (٥٧) ﴾ [الصافات] أى : الذين تحضرهم الملائكة للعذاب ، وهنا تزداد فرحة المؤمنين بإيمانهم ، ويزداد شكرهم لله واعترافهم بفضله ، ولا يُنغِّص عليهم هذه الفرحةَ إلا الخوفُ من الموت وفوات هذا النعيم ، فيقولون :

﴿ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ (٥٨) إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ (٥٩) إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٦٠) لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ (٦١) ﴾

فهم إذن يخافون فواتَ هذا النعيم ، فيتساءلون ﴿ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ (٥٨) إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَىٰ (٥٩) ﴾ [الصافات] يعنى : ألسنا سنموتُ مرة أخرى ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ (٥٩) ﴾ [الصافات] أى : بعد ما نحن فيه من النعيم ، أليس هناك شىء آخر نُحاسَب ونُعذَّب عليه ، كأن أمنيته أنْ يظلَّ على هذه الحال من التنعُّم ، فلا يفوته لا بموت ولا بتغيُّر الحال من النعيم إلى العذاب .

﴿ إِنَّ هَٰذَا (٦٠) ﴾ [الصافات] أى : ما نحن فيه من النعيم الدائم الذى لا ينقطع ولا يزول ، ولا يأتى بعده حساب آخر ولا عذاب ﴿ لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٦٠) ﴾ [الصافات] ولا شك أن هذه غاية ينبغى أن يعمل لها كل عامل ﴿ لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ (٦١) ﴾ [الصافات]

فكأن الحق سبحانه يحكى لنا هذا الموقف من الآخرة ليُبيِّن لنا أثر الإيمان وعاقبةَ العمل الصالح ، ويستحضر لنا ما يحدث فى اليوم الآخر ،

(١) المحضرين : المرغمين على الحضور ، يُحضرهم الملائكة للعذاب . [القاموس القويم - مادة : حضر] . وقال الماوردى : أحضر لا يُستعمل مطلقاً إلا فى الشر . نقله القرطبى فى تفسيره (٨/٥٧٢٣) .